

المصدر: الأهرام

التاريخ: ٦ فبراير ٢٠٠٦

الصوت المالح

بسام الزغبى
محمد عبده



والد محمد ضحى بنفسه
ففرق مع زوجته وطفليه



محمد أسطورة ضد الموت

«رجل طول وعرض، ذراعاته زى المجداف، بيعرف يعوم، فقد الأمل، تعب من شرب المياه المالحة، ومفيش بصيص أمل فى الإنقاذ.. ساب نفسه علشان يموت ويخلص» هذه كانت شهادة أحد الناجين من كارثة العبارة (السلام ٩٨) تختصر دون اختزال، طعم الموت فى تلك المأساة، موت بطعم الملح قى البحر الأحمر.. وكما للموت حكايات، فإن للحياة حكايات أيضا.. الناجون من الملح، الناجون من الموت يروون تفاصيل اللحظات القاسية ورحلة الهروب إلى الحياة من جديد.

قصة للموت.. قصة للحياة

محمد «٦ سنوات» واجه الموت والأمواج والخوف ٥ ساعات بمفرده

والده ضحى بحياته لإنقاذ أمه وشقيقه فابتلعهم البحر الغاضب

سقطت شقيقته من حضنه..

وظل وحيدا حتى أنقذه قارب الناجين

كان فيه دخان كثير، المركب بدأت تنزل في المياه، ماما حضنت أخويا عبد الله، وبابا رمانا في البحر أنا وأختي رحمة، وصلنا إلى قارب، وراح يدور على أمي وأخوي، لكن كلهم نزلوا تحت المياه وما طلّعوش».

هكذا جاءت كلمات أصغر الناجين، محمد أحمد حسنين، الذي لم يكمل عامه السادس، كلمات مضطربة، خائفة، لم تستوعب حجم الكارثة التي نجا وحده منها بعد أن صارع الظلام والماء البارد والخوف والوحدة. محمد كان مع والده الذي يعمل في السعودية منذ ١٥ عاما، وأمه وشقيقته رحمة ابنة العامين ونصف العام، وشقيقه الرضيع الذي أطل على الدنيا منذ شهر واحد.

والد محمد اتخذ قراره بالإجازة لزيارة العائلة في محافظة المنيا لمدة ١٠ أيام.. لم يختار العبارة المنكوبة بإرادته، ولكنها الأقدار، فقد ذهب ليحجز على عبارة أخرى تختصر مسافة الرحلة، ولكن التذاكر نفدت، ليس أمامه إلا «السلام ٩٨».

ساعات قليلة وأطل الموت بملائكته على العبارة، دخان، استغاثات، صراخ، تدافع، أوامر متضاربة، هرولة إلى سطح الباخرة، الماء يتسرب بعنف إلى الداخل «العبارة بتغرق».

«بابا محمد» يجذب زوجته التي تحمل رضيعها وطفليه، يبحث في فزع عن واحد من أطواق النجاة القليلة، هذا طوق، يسقطه حول خصرها ويلقى بها

وبالرضيع إلى البحر الجائع، يستودعها الله أمانة: «لا إله إلا الله»، وبسرعة وضع طفليه محمد ورحمة في طوق آخر، أوصى محمد بشقيقته: «إنت راجل يا محمد خللي بالك من أختك».

وبقلب ممزق ألقى بهما فى الماء، ثم ألقى بنفسه فى الطوق الثالث، يصارع الأمواج التى تباعد بينه وبين زوجته وطفله عبد الله.. لم يبق بين يديه فى مواجهة الموت سوى محمد ورحمة، ظل يواجه الموج والرياح حتى وصل بهما إلى قارب نجاة مكتظ بالهاربين إلى الحياة، وضع طفليه، داخل القارب ودعا الناجون للصعود ولكنه رفض، وأدار ظهره فى رحلة بحث جديدة عن زوجته وطفله، ولكن الرحلة لم تكتمل.. اختفى الأب كما اختفت زوجته وابنه فى قاع البحر القاسى.

الطفل محمد كان هناك يحتضن شقيقته الصغيرة على ظهر القارب، الموج لا يعرف الرحمة، والقدر لا ينتظر، وملك الموت لا يخطئ ما كلف به، امتدت يده لتأخذ الطفلة «رحمة» من حضن شقيقها مع من ضاق بهم القارب فى مواجهة عصف الرياح.

سقط محمد من جديد وحول خصره النحيل طوق النجاة، ليتقاذفه الموج والريعب لمدة تزيد على ٥ ساعات، وكما لا يعرف محمد طريقا للحياة، لا يعرف أيضا كيف يستسلم للموت.. وفيما هو غارق فى العجز عن التفكير أو اتخاذ أى قرار، حدثت المعجزة - فما زال فى عمر الصغير بقية - ومر قارب النجاة

بجوار الصغير مرة أخرى، وامتدت أياى راكبيه لتشد محمد إلى سطح القارب، وتحتضنه قلوب مبتلة خائفة، تتبادل الأمان والأمل.. حتى وصلت إليهم فرق الإنقاذ.

محمد يرقد الآن فى مستشفى الغردقة، مصاب بصدمة عصبية، يتحدث بصعوبة، لا يعرف أحد ماذا يدور فى عقله الصغير، وهل مستوعب لما حدث؟.. هل يعنى كيف ومتى ولماذا ماتت أسرته وتركته وحيدا على ظهر الحياة، كما تركته من قبل على ظهر القارب؟.

محمد يحيط به أهله وعمه هارون وخاله أسامة مصطفى، يقدمون له الألعاب والحلوى لعله ينسى، يروون حكاية الموت والحياة كما سمعوها من رفاق الخوف.